شفاه صامتة وقلوب تتحدث

لـ

طارق رفعت



طارق رفعت : شفاه صامتة وقلوب تتحدث ، قصص
طبعة منصة كتبنا الأولى : ٢٠١٨
رقم الإيداع : ٨٢٣٣-٢٠١٨
ردمك : ٩٧٨-٩٧٧-٨٥٢٢٣-١-٠

تنسيق وإخراج فني : **محمود علي**
مراجعة للإملاء والتحرير الأدبي: **عصمت الحريري**

شفاه صامتة وقلوب تتحدث

لـ

طارق رفعت

قائمة المحتويات

مقدمة

فى عالم يتسم بالتحيز لفئة معينة من البشر على الآخرين، ينمو فى ذلك المناخ الكثير من الظلم والاستغلال والاستبداد، ويتطبع المرء مع ذلك العالم، وكثير منهم يقنع نفسه أن ذلك هو حتماً الطريق الصحيح، فالكل يتبعه فلمَ يكون هو أو هى مختلفين؟

فى "شفاه صامتة وقلوب تتحدث" أحاول أن أنظر فى أعين من ليس لهم صوت، من لا يعرفون كيف أن يعبروا عن أنفسهم، من يشعرون بوحدة فى وسط العديد من البشر الذين يحيطون بهم.. أحاول أن أفتح قلوبهم وأخرج ما فيها بكلمات أملاً أن تستطيع تلك الكلمات أن تزيح عن كاهلهم ولو جزء بسيط مما يحملونه بداخلهم.

أود أن أهدى هذا الكتاب لروح والدي الطاهرة التى تركتنا العام الماضى، فهو من علمنى ألا أحكم على أى شخص وأن أحاول دوماً أن أفهم من أين يأتى الناس، أن أستوعب ما مروا به من تجارب لأستطيع فهم من يكونوا اليوم.

أود أن أهدى هذا الكتاب أيضا إلى والدتى التى علمتنى تفهم الناس وتقدير مشاعرهم وأحاسيسهم وكيفية الحفاظ عليها.

أخراً وليس أخيرا أود أن أهدى هذا الكتاب لزوجتى وبناتى، زوجتى هى صخرتى وبوصلة اتجاهى، فهى دوماً تساندنى فى كل ما أفعل. أما بناتى فهن ما يدفعنى أكتب أملاً أن أستطيع أن أساهم ولو بكلمة لخلق عالم أفضل لهن، وأتمنى أن أكون لهن خير والد وصديق وأخ.

هي والحقيبة

وقفت وفى يدها حقيبتها وهى تنظر حولها فى صمت. كل شىء كان هنا.. كل شىء كان فى ذلك المكان.. كل ما كانت تحلم به، وتصبو إليه. وقفت بلا حراك كما لو كان الزمن قد تجمد للحظة.. ولكن ذلك التجمد كان بمثابة جدار زجاجى رقيق.. بمجرد تحرك يدها الممسكة بالحقيبة تهشم ذلك الزجاج أمامها وتساقط كقطرات المطر، ولكن ترى فى كل قطعة فيه جزء من حياتها.. حتى تهشم على الأرض وتحولت تلك الذكريات، إلى بقايا مبعثرة الواحدة مع الأخرى يستحيل على المرء تمييزها عن بعض... أمسكت يدها بمقبض الباب وتسارعت أنفاسها.. فتحت الباب.. وخرجت.. خرجت من ذلك المكان الذى حاربت الكون لتكون به، لتحميه، لتحافظ عليه... ولكن ها هى تهجره، بما تبقى لها، كل شىء جمعته فى تلك الحقيبة.. وانغلق الباب خلفها وكانت تعلم أنه لن يفتح مرة أخرى، سيسكنه البرد والصمت والجمود.... فقد تركت مكانها... لقد رحلت، رحلت عن قلبها.

هي والقلم

جلست إلى مكتبها.. أخرجت بضعًا من الورقات وقلمًا قديمًا من الأقلام التى لا تزال تعبأ بالحبر.. نظرت إلى القلم والورقة.. ثم نظرت عبر نافذة غرفتها التى تطل على إحدى ميادين القاهرة الصاخبة.. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحا" ولكن لم يكن النعاس قد حاول أن يداعب عقلها بعد.. فكان فى عقلها رسالة يريد أن يحكيها.. فأمسكت بالقلم، وبدأت تكتب ما يمليه عليها عقلها وقلبها.. فردد عقلها.. الأول مستغل.. والثانى كذاب.. والثالث خائن... والرابع قاتل بغيرته... كلماتها خرجت كطلقات الرصاص تترك آثارها فى كل ورقة تكتبها.. كانت آلامها تفوق كل احتمال.. ولكن كانت دائماً تعجب لما يريدون منها هى أن تصلح كل شيء.. أن تصبح كل شيء.. أن ترضي كل من كان غير راض.. لمَ هى؟ فهم يريدون لها تغيير المستغل... والصفح عن الكاذب.. وإعطاء فرص (وليس فرصة) للخائن... وبناء الثقة عند الغيور... لما يطلب الجميع منها كل شيء.. متى يحاسبونهم.. متى يوجه العالم لهم اللوم؟ كانت كل تلك الكلمات تسبح فى عقلها وتسمع فى نفس ذات الوقت كل الجمل المعتادة والكارثة أنها تأتى من نساء مثلها.."معلش" "نزوة وتعدى" "اصبرى" "إديلو فرصة ثانية!"... صرخت.. صرخت بأعلى صوتها فى وسط غرفتها، ولكن سرعان ما تبدد صراخها واختفى خلف أصوات صخب الليل والطرقات... كم كانت تريد أن تنفجر فى وجه كل من يتذرع لكل من أذاها فكانوا لا يحاولون المساعدة، ولكن لا يريدون أن يكونوا وحدهم فى الفخ.... نظرت إلى تلك الأوراق.. وتلك الجروح... وتلك الآلام... ثم فتحت النافذة. أخذت الأفكار التى كتبتها وألقت بهم من نافذتها.. ثم تركت الأوراق.. ليسبح بها الريح.... وقفت تنظر إلى تلك الأوراق وهى تطير عبر السماء وقد بدأت خيوط الفجر تغازل السماء.. معلنة عن قدوم يوم جديد.. تنهدت وتابعت الأوراق ببصرها.. وتساءلت فى عقلها، "أيوم جديد؟ أم جرح أخر مقبول من الجميع؟"

فريدة والسيجارة

جلست فريدة. إلى طاولة فارغة فى أحد النوادي المرموقة فى القاهرة.. وبعد برهة جاءها النادل الذى أخذ طلبها المعتاد "كابوتشينو ".. أخرجت فريدة من حقيبتها علبة سجائرها وقداحتها، وأشعلت سيجارة ونفثت دخانها فى هدوء وراحت تراقب الدخان الذى يتراقص ويتمايل بسريالية فريدة... وابتسمت فى صمت وتمتمت إلى نفسها "هكذا تتبخر العلاقات"، "هكذا تبخر زواجى الذى دام فوق العشرة أعوام"... كانت فريدة معروفة على مستوى النادى هى وزوجها وكان انفصالهم معروف لدى الجميع.. مر بجانبها سيدتان وهُن يتهامسن فيما بينهن "مش دى فريدة حازم؟"، فردت الأخرى "أيوا هى!! مش عارفة إيه القوة والبرود اللى فيه متطلقة مبقالهاش شهر وبصى قاعدة إزاى، زى ما تكون مالكة النادى ولا فارق معاها !! تلاقيها كانت جوازة مصلحة!!" فردت صديقتها " مصلحة إيه يا هبلة دول كانوا روميو وجولييت النادى"، فردت الأخرى " قادرة !!!" أغمضت فريدة عينيها فى صمت وارتسمت على شفتيها ابتسامة، ولكن ليست كأى ابتسامة.. فهى ابتسامة تحد ومقاومة لكل ما تسمعه.. فلا يعرف أحد آلامها، لا يعرف أحد سوى ما يريدون أن يرسموه فى مخيلتهم؛ ليعطوا أنفسهم الحق فى الحكم على الآخرين، وأن يشعروا أنفسهم بنوع من السمو، ولكن فى الواقع هى وضاعة وحقارة. قررت فريدة ألا تنقص من شأنها وألا تنزل إلى تلك الساحات القتالية التى يشتهيها مجتمع يسعى للدم، يستمتع برائحة الغدر والخيانة والاستغلال.. وعلى الرغم من ضعفها، وما يقال ويلقى فى اتجاهها فهى ما زالت قادرة على محو أى من تلك المتبجحات التى تعتقدن أنها أفضل منها.. فأصبحت فريدة تنظر فى عيونهم وتبتسم ابتسامة تعنى أنها لا تهابهم ولاتهتم لما يقولونه.. لقد رأت الكثير اللاتي تحطمن، وهى لن تسمح لأى بشر أن يحطمها.. فقلبها مكسور، ولكنها ستداويه و عقلها يحارب كل لحظة ألف معركة، ولكنها لن تستسلم.. ستعيش بكل جروحها وستجد دربها... لا تحتاج إلى من يحميها.. حتى وإن احتاجت فلن تسمح لجنس بشر أن يشعر بالشفقة أو التعاطف..

عادت فريدة تنظر إلى دخان سيجارتها وهو يختفي فى ظلام الليل، يختفي الدخان وتبقى النار، النار هى كل ما يدفعها للحياة، فضعفها هو سر دفعها للأمام، وآلامها سر ابتسامتها، وهى ما تمنعها من الاستسلام...

ضحكت فريدة ضحكة مجلجلة فى وسط المكان، وقالت بأعلى صوتها وذراعاها مرفوعين إلى عنان السماء بكل ظلامها وتحدى للعالم لا مثيل لهما " مش هموت يا ولاد الكلب"!!

جميلة والقهوة

كانت جميلة تستيقظ كل يوم مبكراً فى المعتاد قرب الخامسة والنصف صباحاً وكان لها طقوس خاصة تحب أن تمارسها.. فهى تسكن فى إحدى البنايات القديمة بالمنيل المطلة على النيل فى الدور الثانى عشر. كانت جميلة تصنع لنفسها كوباً من القهوة التركية "مظبوطة" وتجلس فى شرفتها التى تطل على النيل وتراقب الحياة فى تلك البقعة من القاهرة وهى تستيقظ... هناك الصيادون بمراكبهم الصغيرة فى النيل، وهناك بائعو الجرائد، وبعض السيارات التى ترمح فى شوارع المنيل شبه الخاوية.. فالجميع لا يزالون نائمين غير مبالين... فقط فى انتظار تلك اللحظة التى يتنفضون فيها من أسرتهم ليهرعوا كالفئران المكهربة الى أعمالهم فى الدقائق الأخيرة آملين ألا يصلوا متأخرين... كانت جميلة تستمتع بذلك الهدوء فهو كل ما كان يصبرها على الحياة فى تلك المدينة...تأخذ جميلة رشفة من القهوة التركية المصنوعة من البن المحوج لها خصيصاً من عطار تتعامل معه بصفة شخصية.. كانت تعشق قهوتها فهي ليست مجرد كيف أو مشروب مفضل.. بل هى تجربة فريدة تعيشها يومياً، وتحب دائماً أن تعيشها وحدها.. حتى فى برودة الشتاء القاسية، فهى تخرج بقهوتها حتى إن كانت السماء تمطر والبرق والرعد يترصدان الناس.. فهى تستمتع بقهوتها.. ملاذها وسكونها وما يأخذها إلى عالمها الخاص.. لا يضايقها فيها بشر... فهذه هى القاهرة الجميلة.. التى يتبقى لها ما يقرب من الساعة قبل أن تتحول وحشًا...ذلك الوحش الكاسر الذى ينقض على كل من تسول نفسه النزول إلى شوارعها واختبار أغوارها أو استغلال طرقاتها.. فالأمر بالنسبة لجميلة لا تكمن مشكلته فقط فى الطرقات والزحام... ولكن التحول الذى يحدث للبشر فى تلك الأوقات يدعو للتعجب.. فهم يتحولون إلى كائنات تملؤها المرض.. فيسبون ويتحرشون ولا تسلم امرأة مهما كانت ترتدى من ثياب من التعليقات وحتى اللمس.. كانت تلك الأفكار تبعث فى جميلة إحساسًا بالقشعريرة، وتحاول دائمًا أن تتفادى كل ذلك بأن تحتمى فى سيارتها التى لم تعد مجرد وسيلة نقل ولكنها بمثابة حصنها المنيع الذى تحتمى فيه....